من روائع الأدب الفرنسي

سوء تفاهم

للكاتب الفرنسي اندريه موروا

بقلم الأديب محمود المرصفي

عند ما كنت في العشرين من سني حياتي كنت أتردد كثيراً على شيخ هرم كريم النفس كان لجدى صديقاً حمياً وافر الإخلاص لصداقته وثيق الصلة بصحبته . كان هذا الشيخ الجليل يدعى « م . نيفيل » وليس من السهل أن يجد شاب في مقتبل العمر مثلي أي لذة في حضرة هذا الشيخ الكريم الذي قارب الثمانين ، بل لا يستطيع أن يأخذ بأطراف الحديث الذي اعتاده بين أصدقائه وأترابه من الشباب . وأنا أحرص الناس على هذا النوع من الحديث الذي أرى فيه لذة لا تعدلها لذة وغبطة دونها كل غبطة ، وهو حديث النساء .

على أني مع ذلك كنت لا أسعى إلى هذا الرجل لشيء في نفسي كنت أستشعره نحوه من شفقة أو مصلحة مادية ، وإنما كنت أنشد صحبته لجمال سحنته ووقار جلسته وشدة ذكائه وقوة حجته ، وسعة اطلاعه وتجاربه في الحياة ومنطقه في تحليل الأشياء ، وإدراكه الصادق في تتبع الحوادث مع مزاج من التفكه البرىء والتظرف المحتشم ، والمزاح الرقيق . وليت شعرى من ذا الذي يجد مثل هذا النوع من الناس ولا يسعى إليه

شيخ قعدت به السن العالية عن العمل يعاني آلام المرض القاسي الذي حطم جسمه والذي عز على الأطباء علاجه حتى أصبح هو من برئه يائساً مسكيناً منزوياً في عقر داره يتحمل بؤس الحياة بنفس راضية وقلب صبور ، وحيداً يقاسي جوى الوحدة المبرح في غير تبرم أو تململ

كان هذا الشيخ في ربيع حياته من الرجال الرسميين لدى الدول الأخرى مقرباً إلى الدوق « دي بروجلي » اختلط بالعظماء من رجال الإمبراطورية الثانية ، وعرفهم عن قرب وتسامر معهم وساهم بقدر كبير في تأسيس الجمهورية الثالثة . وعاصر جاليفيه والمركيز « دي لو » وكان أولها صديقاً فرنسياً لولي عهد انجلترا من النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

وأنت إذ يتحدث إليك هذا الرجل عن المؤرخ العظيم « تييرس » يملك عليك حسك وشعورك ، ولا يفتر عن موازنته بمن عاصروه من الرجال فلم يجد منهم من يدانيه في علم أو يبزه في ميزة . وهو يجيد الحديث عن رجال هذا العصر أيما إجادة مثل الوزير الكبير « ماكهون » وجول جريفي الرئيس الثالث للجمهورية الفرنسية الثالثة ، فهو لا يكاد يبتدىء بسيرتهم وما قاموا به من الأعمال العظيمة خلال النصف الأخير من القرن الغابر حتى يدخل بك في تحليل شخصياتهم الفذة سلس التعبير في قوة بيان رائعة ، ساحر اللهجة شديد التأثير في غير مشقة ... !

وأشهد أني لم أر شيخاً أوفر جمالاً ولا أوفق نشاطاً مثل هذا الشيخ الجليل ! وقص عليّ جدى

فيما قص عليّ من أمر هـذا الشيخ أنه كان معبود النساء في عصره يتودد إليه النساء الرفيعات في الهيئة الاجتماعية إذ ذاك ويجتهدن أن ينلن الحظوة عنده. وذات الحظ منهن هي التي تستطيع أن تجره إلى شباكها. وكانت تلك التي لا يخصها بحبه وإعزازه تعتقد أنها دميمة الخلقة ثقيلة الظل غير محتملة؛ وسرعان ما تيأس من الحياة وتجنح إلى العزلة والانزواء!

وهكذا يمتاز كل عصر برجل لا يقاربه أحد في نباهة صيته ولا يساويه في شدة نبوغه وقوة سحره، يكاد يستأثر بكل عظمة ومجد؛ وذلك لأن من ورائه امرأة وافرة الحسن بارعة الجمال تحفزه إلى الأعمال الخارقة وتلهمه النبوغ والعظمة ... ! فمثلاً كان يمتاز القرن الثامن عشر بالمرشال العظيم الدوق ريشيليو والتاسع عشر باللورد بيرون في انجلترا ونصفه الأخير بأدمون نيفيل في فرنسا بطل هذه القصة

كان الرجل لا يشغل وظيفة حيثما تعرفت به. وكان يسكن باريس في شارع «داستورج» في بيت قائم وسط فناء وسيع تحيط به التحف الفنية الثمينة التي أحضرها معه من مختلف البلدان والممالك خلال تجواله متنقلاً في وظائفه التي تقلب فيها. وهو كلف بالفنون الرفيعة كلفاً عظيماً. لذلك ترى بيته وكأنه دار للعاديات والتحف الفنية الخالدة والصور الرائعة الجميلة. فتجد عند مدخل البهو الكبير الأرائك الهندية المزركشة بالطنافس المطرزة بخيوط الذهب والأغطية الصينية البديعة. وترى على النوافذ تلك الستائر الحريرية مرسوماً عليها آيات من فن التطريز الرائع، محلاة في حواشيها بقطع من القطيفة السميكة ترفرف على أطرافها قطع من الحرير الصافي في لون أزرق جميل. وفي وسط هذا البهو العظيم تجد منضدة ذهبية بديعة الصنع عليها صف من الصور الشمسية لغادات فاتنات في أزياء من تلك الأزياء التي كانت شائعة في منتصف القرن التاسع عشر، تحيط بهذه الصور إطارات مطعمة بالأحجار الكريمة ذات الألوان الجميلة

أخذت ذات مرة إحدى هذه الصور الضاحكة وسألته أن يقص عليّ قصة صورة هذه الحسناء التي طالما استرعت بصري بجمالها ورواثها من خلال زجاجها؛ ولكن ما كدت أنتهي من سؤالي حتى قطع عليّ سبيل الحديث وهو مقطب الجبين ساهم الوجه تبدو على محياه دلائل التأثر العميق كأن نابه خطب جلل، وبعد هنيهة عاوده الكلام في صوت متهدج ولسان متلعثم وقال لي: «آه! ليتك تسدل على قصة هذه الصورة حجاب الماضي وستار النسيان! وقد حرصت أشد الحرص على إنكاره وتناسيه طيلة نصف قرن تقريباً. هذه الصورة لماريا بافلوفنا التي ملكت عليّ قلبي وكان بيني وبينها علاقة وثيقة وهوى عذري حيناً من الدهر — ثم أشار إلى صورة أخرى قائلاً: وتلك صورة السيدة «بارشستر» نعم كانت معرفتي بها أيام كانت المرأة تلعب دوراً عظيم الخطر جليل الأثر من وراء ستار كثيف في السياسة الإنجليزية

دعاني ذات ليلة رقيقة النسيم قد أشرق القمر في سمائها فاختفت النجوم في أرجائها لتملي عليّ فصلاً من وصيته المكتوبة فجلست إلى مكتبه واتكأ هو على كتبه أمامي كاسف الوجه مشرد الفكر، ومع ذلك كان يملي عليّ جملاً مترنة

في منطق متسق ، وكان يحدثني في فترات الراحة القصيرة في رزانة فائقة وسلاسة بالغة عما كان يأتيه وهو في ميعة الصبا ومرح الشباب مع النساء في مختلف الأنحاء التي كانت تتردد عليها الطبقة المسيطرة والهيئات الرسمية لمختلف الدول . وحدث أن طال الحديث وتشعبت أطرافه حتى لم نعد نشعر بمرور الساعات فنظرت في ساعتي خفية ومن غير قصد فوجدتها قد جاوزت الثامنة فأظهرت دهشتي لفوات الوقت سريعاً هكذا وصحت قائلا : « الآن يجب أن أرحل لأني على موعد العشاء في بهو آل كليرمنت دي سافوا » فنظر إليّ في دهشة واستغراب باديين وعطف عليّ قليلاً ليتسمع ما سأفوه به وقال لي : « عند من ستتناول عشاءك هذه الليلة ؟ » فأعدت على مسمعه اسم الأسرة فقال : « السيدة هنري كليرمنت ؟ » فقلت : « نعم هي بعينها أسرة آل كليرمنت دي فوبورج سانت هونوريه » فقال : « أنا لا أعرف أين تسكن هذه الأسرة الكبيرة ... أما زالت هذه السيدة جميلة كعهدي بها وهي شابة في ريعان الصبا ... ؟ » فسألته وقد أبديت دهشتي من هذا السؤال : « من هي تلك التي تقصدها ؟ » فقال : « أقصد السيدة دي كليرمنت » فقلت معقباً : « هي كما تعلم يا سيدي الوزير قد قاربت السبعين من عمرها ومع ذلك لم تزل عليها مسحة من الجمال ولمعة من أثر الشباب الناضر ... » فقال : « أليست كذلك كما أظنها وأتصورها في خاطري ؟ » قال ذلك وقد انتشر على محياه البشر والسرور وظهر لي كمن يستعرض أمامه ذكريات الماضي الحلوة وتذكاراته السعيدة مع تلك المرأة الحسناء ، وبعد ذلك عاوده الكلام وقال لي : « أليست تشابه السيدة تينج في جمال الخلقة وبراعة القسمات ؟ » فقلت : « ربما تكون كذلك ... ولكن السنّ كما تعلم لها أثر كبير في ذلك » فقال متمتماً : « أجل ، فأنا لا أكاد أتصورها في خاطري وهي امرأة عجوز . ويصعب عليّ جداً تمييزها حين أراها . فصفها لي كيف آلت إلى ما هي عليه الآن من الكبر » فقلت له : « كيف أصف لك جمال هذه المرأة وهي ما زالت تحتفظ بحور عينيها الساجيتين وبقوامها البديع ورونقها الوسيم ورشاقتها الساحرة ، وهي ما فتئت شديدة الجاذبية لبقة الحديث حلوة المعشر . لم أر فيما رأيت من النساء جمالاً كجمال هذه المرأة العجوز ولا خفة كخفة هذه السيدة المطوف ... ! وأنت فيما أظن أعرف مني بهذا النوع الساحر من النساء . وأتذكر أنك حدثتني عنه حينما كانت مدام « دي بورتال » موضع حديثنا ... فقال لي بلهجة الآسف النادم : لقد شاء الحظ فأصبحتْ في أخريات أيامها أسعد جداً وأوفر هناء مما كانت عليه وهي عذراء طاهرة . كانت يوم عرفتها جميلة فتانة ، ولكن كانت عليها تلك السمة التي يطبعها الشقاء على الوجوه المزوقة وترسمها الفاقة على هيئتها الصبورة ... ! أتم الجملة الأخيرة وصمت مرة واحدة وقال لي : أظنك تريد أن تذهب لموعدك فقد أخذنا من وقتك فترة طويلة ، والآن فلتذهب وإلى اللقاء القريب .. ! فذهبت بعد ما أخذت منه موعداً ليقص علي قصته مع هذه المرأة الحسناء ...

تناولت طعام العشاء هذه الليلة عند أسرة آل كليرمنت . ولقد أكثر السيد هنري كليرمنت

الحديث مني حتى لم يترك لي الفرصة للتحدث مع امرأته فضايقني بذلك كثيراً ....!

والسيد كليرمنت هذا رجل من رجال الأعمال الكبيرة يملك مصانع كثيرة في شرق فرنسا لصناعة آلات الحياكة والدراجات بأنواعها ، ويملك بذلك ثروة طائلة ، ويقطن هنري كليرمنت في باريس طوال عمره ، وهو كلف بالصناعة والفن كلفاً عظيما يدير مصانعه أكابر الفنانين من المهندسين والخبراء . لذلك ازداد الإنتاج زيادة عظيمة ونال من وراء ذلك ثروة لا بأس بها . وهو يملك علاوة على ذلك قصراً فاخراً في « تورين » ومنزلاً صغيراً في « ميدي » ، ويختا جميلاً يسيح عليه كل عام في البحر الأبيض .

كانت السيدة كليرمنت أثناء حديثي مع زوجها متبذة مكاناً قصيا من البهو تقوم بواجب المجاملة للمدعوين والمدعوات من ضيوفها وكانت تتحدث أغلب وقتها مع ابنتها الصغيرة ، وكنت ألمح على محياها الباسم تلك السخرية البريئة التي تلازمها دائماً ...!

وبعد ما انفض الضيوف من حول مائدة العشاء استويت على كنبة صغيرة بجانب الموقد في عزلة من الجمع وقريباً من ربة الدار . ولقد كنت لفتياتها قريناً ملازماً وصاحباً مخلصاً . وكنت ألفت نظرها باهتمامي لها وكثرة مداعباتي البريئة لأطفالها فاستقدمتني لأجلس بجانبها فاغتبطت لذلك أيما اغتباط ، وبعد بضع كلمات فارغة قلت لها : « لقد أمضيت عصر هذا اليوم عند رجل كريم أضمر له في قلبي كل عطف ومحبة وأظهر له كل إعجاب ومودة . ولقد تحدث إليّ عنك حديثاً ملؤه الإعجاب بك والإطراء لك ! »

فقالت وهي دهشة ساهمة : « من هو هذا الذي يتحدث عني بهذا اللسان ؟ » فقلت « هو السيد أدمون نيفيل يا سيدتي وإخالك لا تجهلينه فهو هذا السفير الذي كان صديقاً حميماً لادوارد السابع ... »

فلم أكد أنتهي من اسم هذا الرجل حتى أشرق وجهها كأنما دنا من النار فتورد ، وإذا هي تظهر اهتماماً كبيراً وسروراً عظيماً لهذا الحديث المفاجئ . فقطعت عليّ كلامي قائلة : « نيفيل ... ! وا أسفاه ... كيف حدثك عني ... ؟ وما الذي قاله عني ... ؟ لم أره ... » ثم توقفت لحظة كمن يبحث في ثنايا ذاكرته ... منذ أربعين سنة خلت ... فقلت معقباً : « نعم لقد قال لي هو أيضاً ذلك ... ! »

فقالت : « وهل قص عليك ما كان من أمر قصتنا ؟ »

فقلت : « كلا يا سيدتي ... وإنما لا أخفي عليك أن لهجته وهيئة حديثه القصير جعلتني أشد فضولاً وأكثر ميلاً لمعرفة هذه القصة التي تبدو لي أنها مشيقة ... ! »

وفجأة ألقت بنظرها إلى الأمام فإذا بها تبصر زوجها منهمكاً في حديث مع وزير المالية . وقد انعقد هنالك في أقصى البهو جماعة من الرجال يتناقشون في ضوضاء وجلبة حتى ذهلوا عن التدخين . والتفتت إلى السيدة كليرمنت وقالت لي : « أنا لا أدري لماذا أستعمل كلمة « قصة » وليس في واقع الأمر أي نوع من القصص . وليت شعري ما الذي آل إليه السيد نيفيل بعد ذلك . كنت أطمع في مقابلته أو رؤيته على الأقل في أنحاء باريس ولكني علمت بإحالته إلى المعاش وأنه ملازم داره طيلة يومه وليله لا يكاد يبرحها إلا متريضاً في حديقته الخاصة ؟ وقيل لي بعد ذلك بمدة قصيرة إنه أصيب بمرض لا أعلم نوعه ولا مبلغ خطورته عليه فحزنت له أيما حزن ... والآن انقطعت أخباره عني فكيف حاله الآن ... ؟ »

فأجبتها بلهجة ملؤها التأثر والألم : « نعم يا سيدتي هو مريض أشد المرض وقد بلغ به مرضه حداً خطيراً حتى صرح له طبيبه الخاص بأنه ربما استطاع أن يعيش شهرين أو ثلاثة على أكثر تقدير ... ! »

فقالت بلهجة خانتها العبرات وأرهقها الأسى : « ما أشد حزني وأعظم ألمي ... لهني عليه ... ! مسكين أنت يانيفيل ... ! ما كان أجمل خلقته وأخلب حديثه وأمتع جلسته ... ! أنا لا أعلم من أخباره شيئاً وهذا ما يؤلمني أشد الألم » . ثم وجهت إلى بقية حديثها والتفتت إلى وقالت : ألق بالك إلى ... ! ثم ترددت قليلاً ولما تتم جملتها ، ثم عاودت الكلام واستطردت قائلة : « ربما نسي نيفيل كل ذكرياتنا لبعد ما أصابنا من مشقات الفراق وروعات البين الأليمة ... ولا أدري كيف يكون تأثير رسالة مني إليه ، وإنما أناشدك على أي حال أن تتعرف شعوره نحوي وهو في هذه السن اليائسة وأن تأتي إلى بعد ذلك لتقول لي ما دار بينكما من حديث . والآن اسمح لي أن أقوم بواجب المجاملة نحو ضيوفي »

وفي اليوم التالي قابلت السيد نيفل وقصصت عليه حديث السيدة كليرمنت . وأشهد أني لأول مرة أرى شيخاً وقوراً فاتراً قد أثر فيه هذا الحديث حتى ملك عليه حسه وشعوره وهز من نفسه فاستولى على قلبه وروحه نخانه وقار الشيخوخة فانهلت مدامعه ومدامعي وخرس لسانانا برهة غير قصيرة لا بد أن ثارت خلالها في نفسه أحاديث المنى البعيدة ووساوس الأحلام الغابرة فتخيل أيام شبابه وعظمته بين النساء واستعرض تلك الذكريات الندية ذكريات الصبا والشباب أيام كان يغالب الدهر في ميادين الحب والغرام فبات وأصبح وكأنه ورقة من أوراق الشجر انتزعتها عاصفة من بستان ثم ألقتها في صحراء جرداء لا حياة فيها ولا خضرة ... !

فألححت عليه أن يقص علي قصته مع السيدة كليرمنت دي ساذي وهاك ما قصه على هذا الشيخ قال :

« كنت وأنا في ربيع عمري من يسمونه « معبود النساء » لأني كنت موفقاً في كل مغامراتي معهن في هذا العصر . ما أخطرها من كلمة بل وما أروعها ! أستطيع أن أقولها اليوم في غير اختيال ولا عجب ، وذلك لأني قد توج رأسي الشيب وأصبحت أتوقع الموت في كل لحظة ومع ذلك لا أدعي أني سبرت غورهن ووقفت على دخيلة أمرهن .. !

اضطرتني ظروف منصبي أن أعيش متجولاً في أكبر عواصم أوربا حيث كنت أتصل في كل منها بأجمل النساء اللاتي بلغن حداً كبيراً من الصيت والذكاء ونلن حظاً عظيماً من سحر الكلام ورشاقة القوام وأناقة الحديث . وكان كل ما يعنيني من شؤون الحياة منازلة النساء وهواية الجياد وإتقان مهنتي ! وحينما كنت في السويد والنمسا والروسيا هامت بي كثيرات من فتيات هذه البلاد . وقد كن يأتين الكثير من النزق والخفة والرعونة عسى أن أقع في حبائلهن فأحبهن أو أميل إليهن فأتزوجهن ، وكان كل هذا في غرام طاهر وميل برئ خلاف ما نراه اليوم من نساء هذا العصر اللاتي يلعبن دورهن قصد المادة وأغراض الحياة الوضيعة .

كنت في الثامنة عشرة من عمري حينما كنت سكرتيراً أول في سفارة « فيينا » حيث التقيت

عرضاً فى أسرة نمساوية وهى من آل الكونت برايتبرج بفتاة فرنسية حسناء قد أتت من باريس لتعليم بنات الكونتس اللغة الفرنسية وآداب الموسيقى وأصولها . كانت تسكن هذه الأسرة الريف الفرنسى الجميل فذهبت إليهم مدعواً لأقضى ردحاً من الزمن ورغبة فى تبديل الهواء وإراحة النفس والجسم من أعباء الحياة الحضرية

وذات ليلة عند ما انتظمت مائدة العشاء واستوينا جميعاً حولها وجلست هذه المعلمة بين فتاتيها الجميلتين كالزهرة الكبيرة تحيط بها صغار الورود نظرت إليها فشعرت نحوها بشعور خفى فى نفسى وإعجاب دخيل فى صدرى وأحسست بانجذاب شديد وبلذة قوية كلما رفعت بصرى إليها . وكانت من دون الجالسات — وكن كثيرات — مثار إعجابى ومحل إجلالى ، وكانت الحين بعد الحين تسترعى عينى بسحرها وتستهوى قلبى بظرفها ، وأغلب الظن أنها كانت واقفة على حقيقة تأثيرها فى النفوس وسحرها فى القلوب فلم تكن متكلفة ولا متأنقة وإنما كانت خلابة فى غير كلفة وفتانة فى غير صلف ولا عجب ، كانت ساذجة كالطفل ، ولم أر فيمن رأيت من النساء أجمل من هذه الفتاة ... !

وكانت ربة الدار كونتس نمساوية نابهة الصيت فى مجتمعات « فينا » بجمال شعرها الذهبى ورشاقة قدها الغض، قد انطبع على هيئة أولادها سمة جمالها وخلابة قدها وسحر صوتها . وحدث بعد ما تشتت القوم بعد العشاء أن عزمت على التحدث معها فنجحت فى مسعاى ... فإذا بى بجوارها وجهاً لوجه ... أنستنى هذه الحسناء فى لحظة واحدة كل ما كان لى من خيالات واستهوتنى بنضارة وجهها الوسيم وخلبتنى بطبيعة خلقها الساذج وبجمال هيئتها الفائق !

كانت تدعى « بياتريس دى فادلج » وما كان أحب إلىّ من هذا الاسم الجميل ! كنت أعرف جدتها المركيزة « دى فادلج » إذ كانت تنحدر من سلالة أسرة كريمة فاضلة كانت تقطن بيكاردى وكانت فقيرة الحال اضطرتها ظروف الحياة إلى انتجاع الرزق من الطريق الشريفة المستقيمة وكانت علاوة على ذلك تتحلى بحلية الأدب والعلم والشرف !

طلبت فى اليوم التالى من الكونتس « برايتبرج » أن أصطحب أولادها فى نزهة على ظهور الجياد فقبلت فى كياسة وظرف . فخرجت بصحبة « بياتريس »

ولقد ما أعجبت بركوبها الخيل فهى كما رأيت تجيد هذا النوع من الرياضة إجادة تامة فى رشاقة فائقة وخفة ساحرة . كنت متأنقاً متكلفاً فى الأناقة أحاول أن أعجبها فأوقعها فى شراكى ويخيل إلىّ أنى ظفرت بذلك أيما ظفر ! وبعد قليل ترجلنا ، وجلسنا على عشب الغابة نتبادل حلو الحديث عن هذه البلاد الساحرة التى اشتركنا فى حبها . كانت « فينا » فى هذا العصر جنة من جنات الله قد لانت فيها العادات والتقاليد بعض اللين ، وأصبح الحب فضيلة فى كل مكان يتذوقه الفقير والغنى على السواء، وكانت الصحف فى ذلك الوقت تدعو جهراً إلى تبادل الحب بين الجنسين على أفواه الطرق وفى المتنزهات العامة فى غير خشية ولا وجل ... ! وذلك لأن ملك البلاد إمبراطور شاب وإمبراطورة فتاة لم تتجاوز السابعة عشرة من سنها السعيدة ! فسرعان ما لبى الشبان والفتيات هذه الدعوة التى صادفت هوى

كثيراً فى نفوسهم فأتوا فى سبيل مطارحة الحب على هذه الهيئة كل نزق ورعونة ... ! وقالت لى الآنسة « بياتريس » إنها لا تقدم على هذا النوع من الطيش بل تراه وهى على بعد منه ، وتشاهده وهى فى منجاة منه ... ! ولكنها تعجب بالأمبراطورة الفتاة أشد إعجاب لدمها الأسبانى الطاهر ، ورشاقتها الساحرة . وكانت الموسيقى فى جميع أرجاء « فينا » تنفح الأرض بعبير أنغامها الشجية وتحفل الجو بجميل ألحانها السامية ، وهذا لعمرى أبلغ دليل على نقاء طوية هذا الشعب النبيل وحسه الرهيف وذوقه الجميل ... !

وأمضينا على هذا النحو أياماً سعيدة كلها غبطة وسرور مازالت مطبوعة فى ذاكرتى ، مرسومة فى ذهنى أجمل بها أخريات أيامى وأزين بها جيد ساعاتى كلما نزلت بى وافدة أو ألم بى مصاب !

أقبل الشتاء فأصبحت كأنى واحد من أفراد الأسرة فى قصر برايتنزج ، ورفعت الكلفة بينى وبينهم ولم يعد للرسميات موضع بيننا حتى قيل عنى فى فينا كلها إنى عشيق الكونتس والحقيقة كانت غير ذلك فقد كنت عشيق معلمة أولادها وعلى الرغم من وثاقة العلاقة بيننا وسرعة الصلة بين قلبينا لم يثمر هذه الرابطة أى سعادة وذلك يبدو غريباً لرجل اعتاد الظفر فى حبه والسعادة فى غرامه — هذا لأن فى القصر جيشاً كبيراً من الخدم والحاشية حتى شق علينا أن نلتقى فى هذا الجمع من الحاشية ، وإذا حاولت أن آخذ منها موعداً للنزهة خارج القصر أبت أو اعتذرت بحجة هذه العيون الساهرة .

وفى اليوم نفسه وكان يوم الأحد لم أظفر بإقناعها لتتريض معى على إحدى الربى الخضرة حيث الطبيعة تغنى بأنغام بتهوفن الشجية . ولكنى رغبت فى أن آراها فذهبت إلى الهيكل الإمبراطورى لأسمع الصلاة والدعاء فى ذلك اليوم المقدس . كان هذا الهيكل قطعة من قصر « برايتنزج » حيث كانت ترتل الكونتس بعض الأناشيد الدينية وكان حرس من الرجال الأشداء واقفين حول المذبح لابسين قلنسوات كبيرة عالية . وكنت الحين بعد الحين ألمح وجه الآنسة « فاولجز » ثم أغرق فى بحر لجى من التأمل العميق . ظللت ملازمة فتاتها وقتاً طويلاً وخشيت إن أنا بادرتها بالكلام أن تهرب منى معتذرة . فانتهزت ذات مرة فرصة وجودها وحيدة فعرضت عليها أن تذهب معى إلى حفلة موسيقية يقيمها بعض السراة من الأقرباء فاعتذرت إلىّ قائلة إنها لا تستطيع أن تظهر معى على مسرح المجتمع — زاد ذلك فى اعتقادى أن المرأة لا زالت ضعيفة مقصوصة الجناح مهضومة الحقوق ... !

ولما قوض الصيف خيامه واستدبر أيامه وأقبل الشتاء وتوجت ثلوجه أرض « فيينا » استطعت أن أراها وأتبادل معها مختلف الأحاديث البريئة . كانت تجيد اللعب على الثلج بمهارة فائقة ، وتحسن الانزلاق عليه بهيئة رائعة فأثارت إعجاب الحاضرين من مشاهديها . وقد قصت علىّ تاريخ تمرينها وفضل نجاحها فى هذه اللعبة ، وكيف كانت تروض نفسها عليها على بركة بضواحى « أميان » كانت تتجمد فى الشتاء .. ! فهاجت ذكرياتنا لهذه البلاد الفاتنة الجميلة ! كنا نسير فى طريق من الجليد المتجمد فتركتنى أسند قدها الرخص المتمايل فنعمت بذلك وطبت نفساً ، واسترجعت أملاً كان ضئيلاً وعاودنى رجاء كان بصيصاً ... !

وبحثت لها ذات يوم بأنى أملك فى مكان قصى

من المدينة وفي مأمن من الأنظار بيتاً صغيراً أنيقاً يقع في كذا ... فشخصت ببصرها إليّ وقالت وعلى وجهها طابع العفاف المُهان : « أنا لست ممن تعتقد فيهن الخفة والطيش فيسقطن من عالى هامتهن وليس لهن بعد ذلك من صعود » . فرجعت إلى نفسي ندمان آسفاً على ما أبديت من خِسّة ودناءة أمام هذه المرأة الطاهرة ... ! فعاودت عليها الكرة لأصلح من خطيئتي السابقة بأن أصحبها في نزهة ريفية بالقصر فأبت أيضاً مستكبرة وقاومت بأنفة نسائية سامية ، وهذا مما جعلني لا أشك مرة واحدة في إخلاصها وطهارتها ... !

ولقد عودت نفسي أن تسلك بي أقصى المسالك في الأمل والرجاء . مرت بضعة أسابيع كنت أرى خلالها « بياتريس » تجول هي وفتاتاها خلال مماشي الحديقة يتريضن في هدوء ويستنشقن عبيرها في دعة ... ففكرت في نفسي هنيهة في حبي مع تلك الفتاة فانتهيت إلى أنها هي المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تكون لي زوجاً . وقد يبدو لك ذلك غريباً فتذهب مذاهب شتى من التفكير ولا سيا وأنت شاب في قوة الصبا وحرارة الشباب !

جال في خاطري مختلف الهواجس والآمال فتصورت أن بياتريس ربما لا تقبل يدي فتعتذر بأن ذلك في حكم المستحيل إذ كيف تظهر أمام مجتمع الهيئات الرسمية والدبلوماسية وقد عرفها القوم معلمة لفتيات الكونتس . ولكني تغلبت أخيراً على هذه العقبة بأن طلبت (إذا ما رضيت) نقلي من السلك السياسي إلى وظيفة أخرى في بلد آخر ولا سيا وأنا غني وافر الثروة ولي نفوذ ليس باليسير في وزارة الخارجية .

وفي نهاية الأمر صَمَّمْتُ في غير تردد أن أقوم بنفسي وبغيرما أكلف رسولاً من الأهل أو الأصدقاء (وذلك على غير ما درج عليه القوم في هذا العصر) بأن أبدي لهذه الفتاة التي ملكت على حواسي وقلبي رغبتي في الزواج منها . فانتهزت أول فرصة عند ملاقاتها وفاتحتها بالأمر في صراحة ظاهرة ... ! ولم أكد أنتهي من كلامي حتى علا محياها الدهش والتأثر وطلبت مني أن أمهلها وقتاً لتفكر في هذا الأمر الخطير

وأتذكر أنا أيضاً مبلغ تأثري وحرج موقفي في هذه اللحظة وأنا واقف إزاءها أنتظر ما كان يخبئه لي القدر ويستره عني الغيب ... !

استحال علي في هذه الفترة من الانتظار أن أقوم بأي عمل أو أن أقابل زائراً ، وظلت عيناي شاخصتين طيلة النهار إلى باب غرفتي أنتظر قدوم الرسول ينبئني بحظي ! ولكنه لم يأت بعد . فقلت لنفسي : لم هذا الجزع وعلام هذا الفزع ؟ وكيف تقدم الفتاة على الرفض أو القبول دون أن تسترشد رأي أبويها فهي لا بد أنها كتبت لها وأنها منتظرة رسالتهما في هذا الصدد ! وبعد ذلك بأيام قلائل بعثت إلي بكلمة مختصرة جافة فاترة إذ قالت فيها : « أشكرك على عاطفتك نحوي ، ولكني لا أستطيع قبول اقتراحك ... » . حاولت أن أراها بعد ذلك فعلمت أنها غادرت أسرة (برابنزج) إلى فرنسا !

لا تسل يا بني عما صرت إليه من شقاء النفس وجحيم القلب ووخز الضمير ... ! فلأول مرة في حياتي صادفت المرأة التي سماها « شاتوبريان » سيليفيد Sylphide وهي التي يتمناها كل رجل لتكون له شريكة في حياته . وقد أكون خادعاً نفسي بالأحلام

وتدلساً عليها الرأى بالخيال ... ولكن من يدرى لعل الخيال والوهم كانا ولا يزالان أقوى عضداً وأبقى أثراً على مشاعر الإنسان وحسه حتى لا تجرؤ الحقيقة على محوه ولا الواقع على إزالته . وعلى ذلك فالمرأة التى اصطفيتها من دون أترابها قد أفلتت من يدى إلى غير رجعة !

أصبحت بعد ذلك وليس لى أمل غير التمتع بالذكرى العزيزة ردحاً من الزمن ، وأضحت إقامتى فى (فيينا) غير محتملة تثير فى نفسى الهم وتهيج فى صدرى اليأس فطلبت نقلى إلى بلد آخر أياً كان ، فكان أن أرسلت سفيراً لبلادى فى روسيا حيث طبيعة المناخ واختلاف البيئة والاجتماع وماريا يافلوفنا التى رأيت صورتها منذ قليل ، كل ذلك سوّغ لى جواً يختلف كثيراً عن ذلك الجو الذى اعتدته فى فيينا فى سالف أيامى !

وبعد ذلك بسنوات قليلة سمعت أنها تزوجت هنرى كليرمنت فكان وقع الخبر على مسامعى شديداً وأثره فى نفسى بليغاً لأنى علمت أنها تزوجته لماله وجاهه ليس غير فأضربت عن الزواج لسببها وأصبحت عنه عزوفاً كارهاً

وأخيراً نجحت فى تحاشيها ، فلم أعد أحاول مقابلتها أو أمنى النفس برؤيتها وهأنذا قد بررت بعهدى وصمدت فى عزمى ، وأود أن تخبرنى بحالها وما كانت عليه بالأمس عندما قابلتها ؟ فوصفت له حالها بكل ما أوتيت من بيان واستطعت أن أصور فى خاطره صورة هذه العجوز الحسناء .. !

فأجابنى قائلاً : « أجل هى كما وصفت ذات عينين صافيتين يفيض منهما الحنان والرقة ، ولكنه حنان كدرته طبيعة القدر فيها .. ! أريد مع ذلك أن أراها ثانية ... ! » فحكيت له ما دار بينى وبينها بشأنه فقال بلهجة المهتم : « آه ! وكيف حدثتك عنى وما الذى قالته لك فى أمر قصتى معها ؟ » فقلت : هى تقول إنها لم تراك منذ أربعين سنة خلت ! وطلبت أن أتعرف مبلغ عاطفتك نحوها الآن ... فقال : « قل لها إنها لا زالت كما هى على حالتها منذ ١٢ يناير عام ١٨٦١ بجانب لهيب الموقد فى ردهة قصر برايتنبرج » .

فى اليوم التالى ذهبت لزيارة السيدة كليرمنت دى ساذى لأخبرها بذلك فأصغت إلىّ منصتة دون أن تقطع علىّ الحديث ، ولما فرغت من حديثى قالت : رباه .. ! ما أغرب الحياة .. ! فقلت : أجل ما أغربها !

حقاً أنا لم يدر فى خاطرى أن رجلاً كهذا الرجل يستطيع أن يبقى على ذكرى حب فتاة مخلصاً وفياً هذه الحقبة من الزمن ولا يعتوره أى نسيان أو يشوبه أى إهمال .. !

أما أستطيع فى غير إحراج أن أسألك أنت أيضاً يا سيدتى عما كان يخالجك من شعور نحو «أدمون نيفيل» فى عام ١٨٦٠ ؟ أما كنت تضمرين له الحب كما أضمره لك فى السر والعلن .. ؟ فصاحت صيحة كلها دلال وهيام وتضرج وجهها قليلاً وقالت : أما أنا فكنت أحبه حباً يقرب من الجنون .. ! وبعد ما فكرت قليلاً عادت مبتسمة قائلة : ولم أزل أحبه حتى الساعة ! فقلت : ولماذا رفضت اقتراح زواجه بك إذ ذاك ؟ فقالت : لأنى كنت لا أظن لحظة واحدة أن اقتراحه هذا فيه شىء من الجد بل كنت أعتقد أنه يهزأ بى ويستدرجنى لأكون له خليلة لا شريكة ... ! ومما زاد فى اعتقادى هذا أنه عند ماجاء إلينا فى قصر برايتنبرج قال لى الكونت برايتنبرج

« حذار من هذا الرجل الخطير . . ! » هذا فضلاً عن علمي بشهرته في مغازلة النساء والعبث بقلوبهن في كل مكان . ولما فاتحني برغبته في الاقتران بي وسلك تلك الطريقة الشاذة التي لم يألفها مجتمع ذلك العصر . كما تعلم يا صديقي في مثل هذه الأحوال كان يجب عليه أن يكلف وسيطاً بينه وبين أبويّ صاحبي الشأن في مثل هذه الظروف كما تقضي به التقاليد إذ ذاك . وأغلب الظن أنه قام بهذه الخطة اعتقاداً منه أنني ربما تأثرت وخجلت فأقبل طلبه في غير تردد ولا تفكير ! وا أسفاه . . . ! قد جاءت النتيجة على غير ما أراد إذ لم ترق في نظري هذه الخطة وحسبته هازئاً عابثاً . . . ! فاعتذرت له في غير ندم . . . ! وبعد ذلك بسنوات قليلة شاءت إرادة الله أن أقترن بزوجي « كليرمنت دي سادي » وبالطبع ليس من اللياقة أن أحدثك عنه وإنما أترك لبصيرتك النافذة لتحكم له أو عليه وأنت الذي طالما بذلت اهتمامك بدراسة النفس البشرية !

ثم عرجت إلى قصة نيفيل قائلة : « مسكين نيفيل ! لهفي عليك ما أقسى الحظ . . . ! ألم يتزوج إلى الآن بسببي . . . حقاً إن الحياة ظالمة غير عادلة قاسية غير راحمة . . . ! في لحظة واحدة من الخطأ وسوء التفاهم قضى القدر على رجل كريم وشاب بريء أن يظل في شقاء مقيم مدة ستين عاماً ! »

ولما انتهت قلت لها : « لقد كلفني السيد نيفيل أن أدعوك إلى زيارته وأظنك لا ترفضين رؤيته وقد قارب النهاية . . . ! وكم يكون جميلاً إذا جئت فأصلحت في ساعاته الأخيرة سوء التفاهم الذي فرق بينكما وسبب شقاء حياتيكما ، وتقدمين العزاء الأخير لحبيبك الأول . . . ! »

فلم ترد عليّ وغرقت في تفكير عميق مؤثر ثم قالت : « أنا لست على رأيك ! دع هذا الوجه الوقور يحب الموت هادئاً مطمئناً واترك تذكار حياته مطبوعاً على خاطره ليكون له في آخرته عزاء وسلوى . . . فلا تزعج صديقك وقل له : إني آلم له أشد الألم ، واعتذر له بأني لا أبرح البيت إلا نادراً ، وربما أستطيع أن أزوره في الأسبوع المقبل . . . ! »

ولكن لم يكد يأتي هذا الأسبوع حتى زارته المنية في غيبة عن حبيبته الأولى التي لم تستطع أن تراه إلى الأبد . . . !

محمود المرصفي

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد